



الخطاب الملحمي والثورة في شعر مفدي زكريا: دراسة أسلوبية ولسانية للصور البلاغية والتراكيب *Epic Discourse and Stylistic Construction in Mufdi Zakaria's Iliad of Algeria:*

A Linguistic-Poetic Reassessment

أ.د/ سليم مزهود*

جامعة ميلة (الجزائر)

salimsimez@gmail.com

ملخص:	معلومات المقال
يهدف هذا البحث إلى دراسة الخطاب الملحمي في ديوان إلياذة الجزائر للشاعر مفدي زكريا، من خلال تحليل الصور البلاغية والتراكيب التعبيرية على المستويين الأسلوبي واللساني، مع التركيز على الدور الذي تلعبه هذه العناصر في إعادة إنتاج تجربة الثورة التحريرية الجزائرية شعرياً. يعتمد البحث على منهج أسلوبي لساني، يُوظف أدوات تحليل تركيبية، دلالية، وصوتية لبيان كيف يشكّل الديوان سرديّة شعريّة تحمل روح الثورة والهوية الوطنية. تُظهر النتائج أن الصور البلاغية والتراكيب التعبيرية في إلياذة الجزائر لا تكتفي بالوظيفة الجمالية، بل تعمل كأدوات وظيفية تُثبّت البعد الملحمي للخطاب الثوري، وتُعزّز أثر النص على المتلقي على الصعيد النفسي والجمالي. كما تبين أن الاشتغال الأسلوبي اللغوي يُمكن الشعر من الجمع بين التعبير الفني والتأثير التعبوي، ما يجعل الديوان نموذجاً متكاملًا لفهم العلاقة بين اللغة والتجربة الوطنية.	تاريخ الارسال: 2025/12/09 تاريخ القبول: 2026/06/07 تاريخ النشر: 2026/06/14
	الكلمات المفتاحية: ✓ خطاب ملحمي: ✓ ثورة جزائرية: ✓ أسلوبية: ✓ تراكيب تعبيرية:
	Article info Received 09/12/2025 Accepted 07/06/2026 Published 14/06/2026
	Keywords: ✓ Epic discourse: ✓ Algerian Revolution: ✓ Stylistics: ✓ Poeticimagery:
Abstract : This study explores the epic discourse in Mufdi Zakaria's <i>Iliad of Algeria</i>, focusing on how rhetorical imagery and expressive linguistic structures contribute to shaping its poetic representation of the Algerian Liberation Revolution. Through a stylistic-linguistic approach, the research examines structural, semantic, and phonetic features to determine how the text constructs an elevated national narrative rooted in collective memory and heroic consciousness. The findings indicate that Zakaria's use of metaphor, hyperbolic elevation, rhythmic intensification, and symbolic layering serves not merely aesthetic aims but also reinforces the epic and revolutionary tone of the discourse. The study concludes that the diwan's stylistic architecture enables it to merge artistic expressiveness with ideological resonance, positioning <i>Iliad of Algeria</i> as a significant model for understanding the interplay between language, poetic form, and national identity.	

1. مقدمة

يُعدُّ الشعر وسيلةً مركزيةً لتعبير الشعوب عن وعيها التاريخي، وإنَّ للتحوُّل اللغوي في لحظات الصراع دوراً محورياً في إعادة تشكيل الذاكرة الجماعية وصياغة سرديات الهوية. في التجربة الجزائرية، اتخذ الخطاب الشعري أثناء الثورة التحريرية طابعاً ملحماً يميزه الجمع بين البناء البلاغي والوظيفة التعبوية، بحيث لم يقتصر الشعر على وظيفة التوثيق الأدبي بل امتدَّ إلى وظيفة التحريض والتثبيت القيمي. يبرز مفدي زكريا في هذا السياق كشاعر جسَّد بنحو استثنائي قدرة الشعر على تحويل الحدث إلى أسطورة وطنية؛ ذلك أنه صاغ في ديوانه إلياذة الجزائر بنية لفظية وإيقاعية تستدعي الأبعاد التاريخية والرمزية للثورة، وتمنح النص قوة تأثيرية تتجاوز الإطار الجمالي المحض.

ومن هذا المنطلق تنبني أهمية هذا البحث الذي يسعى إلى دراسة الخطاب الملحمي في إلياذة الجزائر عبر التركيز على الصور البلاغية والتراكيب التعبيرية بوصفها آليات أسلوبية ولسانية تساهم في بناء سردية ثورية متماسكة. إن النظر إلى الصور البلاغية والتراكيب التعبيرية ليس كتجميع لعناصر زينة، بل كأطر وظيفية تعمل على تشكيل المعنى، يتطلب قراءة تراوح بين مناهج النقد الأدبي والتحليل اللساني، نظراً لأنَّ البعد الصوتي والتركيبي والدلالي في النص الشعري ينسج معاً قدرة النص على الإقناع والتعبئة.

تنطلق هذه الدراسة من إشكالية مركزية تقرأ النص الشعري في مفرداته اللغوية والصرفية والإيقاعية لتسأل: بأيّ آليات أسلوبية ولسانية تُبنى البنية الملحمية في ديوان إلياذة الجزائر، وكيف تُوظَّف الصور البلاغية والتراكيب التعبيرية لخدمة إعادة إنتاج تجربة الثورة في وعي المتلقي؟ تُستدعى هذه الإشكالية من حاجة نقدية ومعرفية لفهم آليات اشتغال اللغة في سياق ثوري، وللتمييز بين الوظيفة الجمالية والوظيفة التعبوية عند الشاعر، خصوصاً في نصٍّ يزخر بصورٍ معيارية ومرافعاتٍ بلاغية.

استجابةً لهذه الإشكالية، تفترض الدراسة الفرضيات الآتية: أولاً، أنَّ الصور البلاغية في إلياذة الجزائر -بما في ذلك الاستعارات التوسعية، التضخيم، والرموز التاريخية- لا تعمل كزينة لغوية فحسب، بل تُعدُّ آليات لإعادة تشكيل الوعي الجماعي وإضفاء طابعٍ ملحٍ على الحدث الثوري؛ ثانياً، أنَّ التراكيب التعبيرية -من حيث التكوين التركيبي، الجمل الإنشائية، والإيقاع الصوتي- تسهم في تحفيز استجابة وجدانية لدى المتلقي عبر ما يمكن تسميته "التكثيف الأسلوبي"؛ ثالثاً، أنَّ التجاور البنيوي بين الصور البلاغية والتراكيب اللسانية يُفضي إلى خطاب شعريٍّ يمتلك قدرة تعبوية ومهيمنة على تشكيل سردية وطنية متجاوزة للزمن الآني.

وتهدف هذه الدراسة إلى تحليل آليات تشكيل الصورة البلاغية في إلياذة الجزائر وتفسير وظائفها الدلالية في سياق الثورة؛ وتفكيك التراكيب التعبيرية من منظور لساني (تركيبي، صوتي، دلالي) وإبراز دورها في بناء النبوة الملحمية؛ كما تسعى إلى رصد آليات التوظيف المشترك بين البلاغة واللسانيات التي تُفضي إلى خطاب تعبويٍّ ملحٍ؛ وتحاول الدراسة الإسهام بمنهجية قابلة للتطبيق في الدراسات الأسلوبية للشعر الثوري داخل حقل الشعرية الجزائرية المعاصرة.

تنبّي الدراسة من الجانب المنهجي إطاراً أسلوبياً لسانياً تأصيلياً يقوم على تحليل نصّي نموذجي نوعي يكامل بين أدوات البلاغة التحليلية وأدوات اللسانيات الوصفية. يشمل ذلك جلسات قراءة دقيقة لأبياتٍ مختارة من إلياذة الجزائر، مع تحليلٍ على المستويات الآتية:

- البعد التركيبي (بنية الجملة، الاستراتيجيات الإنشائية)،

- البعد الدلالي والبلاغي (أنماط الاستعارة، التضخيم، الترميز)،

- البعد الصوتي والإيقاعي (ميزان البحور، توظيف الحروف، تكرار الأصوات وإيقاع الجملة)،

- البعد التداولي والسياسي (الإشارات التاريخية والمرجعية، مخاطبة الجمهور، الوظيفة التعبوية).

وأخيراً؛ تهدف هذه المقدمة إلى وضع أساس نظري ومنهجي واضح للبحث: قراءة إلياذة الجزائر كلغة ملحمة تُعيد تشكيل الثورة عبر صور بلاغية وتراكيب لسانية، وتحليل كيفية إسهام هذه الآليات في جعل النص فاعلاً نفسياً واجتماعياً وثقافياً في مسار بناء الذاكرة الوطنية.

2. البنية الملحمة في الخطاب الشعري لمفدي زكريا

1.2 مفهوم الخطاب الملحمة وتمثاله في الشعر العربي الحديث

يُعدّ الخطاب الملحمة أحد الأنماط التعبيرية الكبرى التي تتجاوز مجرد السرد الشعري لتتحول إلى بناء رمزي يُعيد تشكيل الوعي الجمعي من خلال لغة ذات طاقة تخزينية عالية. فالملمحة -بحسب التصوّر النقدي الحديث- ليست قصيدة طويلة فحسب، بل هي «بناء لغوي ينهض على تمجيد الذات الجمعية، وتمثيل التاريخ في صورة أسطورة، وتوظيف آليات تعبوية تُحفّز روح الانتماء» (مزهود، 2021، ص. 77). ويسمح هذا التعريف بقراءة الخطاب الملحمة في إلياذة الجزائر بوصفه تمظهرًا لوعي وطني يبحث عن شرعية لغوية ورمزية قادرة على حمل تجربة الثورة التحريرية.

وقد شهد الشعر العربي الحديث تحولاً واضحاً نحو توظيف الخطاب الملحمة، لكنه عند مفدي زكريا بلغ ذروة خاصة نتيجة تزامنه مع حدث مركزي هو الثورة التحريرية الجزائرية، مما جعل اللغة تتحول إلى ميدان مقاومة، والشعر إلى سلاح رمزي يشحذ الذاكرة ويؤسس هوية. ذلك أنّ إلياذة الجزائر ليست فقط نصّاً يصف الثورة، بل نصٌّ يُعيد بناء ملحمة الأمة من خلاله.

2.2 توظيف الحدث التاريخي في بناء الملحمة الشعرية

إن أحد أبرز مظاهر البناء الملحمة عند مفدي زكريا هو قدرته على تحويل الحدث التاريخي إلى حدث لغوي، بحيث تذوب الحدود بين الواقعي والرمزي؛ فالوقائع -من معارك وشهداء ومحطات سياسية- لا تُروى كحقائق، بل تتخذ هيئة «صور كبرى» تحيل إلى الوعي الجمعي للأمة. وتُظهر إلياذة الجزائر هذا المسار بوضوح في قول الشاعر:

جزائر! يا مطلع المعجزاتِ ويا حُجَّةَ اللهِ في الكائناتِ (مفدي، 1987 ص 19)

تتجاوز الجزائر انطلاقاً من هذا البيتوصف المكان أو الوطن، لتغدو «مطلع المعجزات»، وهي استعارة كبرى تمنح الوطن طابعاً خارقاً، مما يجعلها تنسجم مع البنية الملحمة التي تجعل من الثورة حدثاً استثنائياً لا يُقاس بما قبله. يُشير مزهود (2021، ص. 80) إلى أنّ مثل هذه

الصياغات تُحوّل الواقع إلى «زمن رمزي» يتيح للنص أن يتجاوز التوثيق ليصبح إعادة إنتاج دلالي للحدث. كما يتجلى البناء الملحمي من خلال تضخيم رموز البطولة وأساطيرها، فقد وظف الشاعر مفدي الرموز الأسطورية، مستفيدا من طاقاتها الإيحائية في التعبير باعتبارها رموزا - تحمل مفاهيم ميتافيزيقية، وتعبر عن مرحلة معينة من الفكر الإنساني، حيث تسهم تلك القصة الخيالية في إضفاء عنصر اللاواقع على الرموز التي تتلون بها (راغب، 1996، ص. 5)، ويوظف الشاعر مفدي الأسطورة في بعض نماذج الشعرية، ومنها توظيفه رموزا تاريخية أسطورية مثلت القوة والعبقريّة في العالم، في قوله:

وهذا أبولوس كان طبيبا .. يدين له العلم بالعبقرية (مفدي، 1987، ص. 25)

هوميروس أرّح لم ينتقد .. وشهنامة الفرس بالوصف تغلو (مفدي، 1987، ص. 100)

3.2 الوعي الجمعي بوصفه نواة للبناء الملحمي

لا ينبغي الخطاب الملحمي على بطولة فردية، بل يعتمد على «البطل الجمعي»؛ أي الشعب الممثل في صيغة واحدة تغلو فوق الأفراد. وهذا ما يظهر جليا في قول مفدي: فَخَلَّدَ قُدْسُ اللَّهْيَبِ بَيَانِي وَأَذْكَى .. هَيْبُ الْجَزَائِرِ فِكْرِي وَعُمْرِي (مفدي، 1987، ص. 10) تتحول الجزائر هنا إلى ذات فاعلة، فهي تحدث لهيبا، فيخضع لها الشاعر ببيانه، ولهيبها يذكّيه. وهذا التحويل - من الجماعة إلى كيان رمزي واحد - هو أحد أهم أسس الملحمة. وإنّ توحيد الجماعة في واحد، يمثل بُعدا جوهريا في الشعر الثوري، إذ يوفر مرجعية لغوية موحدة تُشرعن السردية الوطنية.

وتُظهر الدراسات الأسلوية الحديثة أن هذا الأسلوب يُعزّز الاستجابة العاطفية ويكسب الخطاب قوة تأثيرية (تأحي، 2019، ص. 152).

4.2 الإيقاع بوصفه مكوّنًا بنيويًا في الخطاب الملحمي

لا يمكن للخطاب الملحمي أن يستقل عن بُعد الإيقاعي؛ إذ إنّ البنية الإيقاعية هي إحدى أدوات «التكثيف التعبيري» التي تمنح النص طاقة خطابية مضاعفة، خصوصا في الشعر الثوري.

لقد اعتمد مفدي زكريا بحر الكامل - في كثير من مقاطع الإلياذة - لما يمتاز به من إيقاع ممتد يتناسب مع طبيعة الخطاب الملحمي.

ويمكن ملاحظة هذا الإيقاع الصوتي في مثل قوله:

تلقف رايتك ابن الجزائر .. وعند ابن زيان تبلى السرائر (مفدي، 1987، ص. 41)

وتذكر ثورتنا العارمه .. بطولات سيدتي فاطمه (مفدي، 1987، ص. 42)

وتؤكد اللسانيات الإيقاعية أن الإيقاع الصوتي ليس ظاهرة جمالية فقط، بل هو «استراتيجية تداولية» تسهم في رفع شحنة التأثير العاطفي لدى المتلقي (Crystal, 2003, p. 342).

5.2 اللغة الرمزية كأداة لبناء الملحمة

يتسم الخطاب الملحمي بإنتاج معجم رمزي واسع يستند إلى التاريخ والدين والطبيعة، إذ تظهر في إلياذة الجزائر رموز، مثل: النار، النور، الشهداء، الريح، الفجر، الصحو، الفداء... وتعمل هذه الرموز بوصفها شبكة دلالية متكاملة تُعيد تشكيل صورة الثورة. يقول مفدي:

وَفَجَّرَ أَصْلَابُنَا فِي حَمَاهَا .. بَرَائِينَ تَنْصُبُ حِقْدًا وَنَارًا (مفدي، 1987، ص 67)

وَبَارِكْ فَأَرَا يُورِغُ نَارًا .. فَيَحْلَعُ بِالرُّعْبِ قَلْبَ (مفدي، 1987، ص 65)

فالبركان هنا ليس بركانا حقيقياً، بل هو رمز للتحرر؛ وهو ما يجعل النص متجاوزاً للحدث الفيزيائي إلى «الحدث الرمزي». وتشير الدراسات النقدية إلى أن تحويل الحدث إلى رمز يُعد من أبرز خصائص الخطاب الملحمي غالباً (Frye, 1957, p. 312).

3. البنية البلاغية الأسلوبية في «اللهب المقدس» بين القوة الإيحائية والوظيفة الوطنية

1.3 أسلوبية الصورة الشعرية ووظيفتها التعبيرية

تتأسس الصورة الشعرية في اللهب المقدس على بنية مركبة تُزاوج بين الرمزية القومية واللغة الملحمية، بما ينسجم مع طبيعة اللحظة الثورية التي تشكّل الإطار الفكري والنفسي للديوان. فالصورة عند مفدي ليست مجرد تشكيل بلاغي، بل هي -وفق المنظور الأسلوبي الحديث- «بناء دلالي مُنتج للمعنى» أساسه الانزياح والتكثيف (Leech & Short, 2007, p. 125).

إنّ الصورة الثورية عند مفدي تميل إلى التصعيد الدلالي من خلال شبكة من الرموز: النار، الفداء، الفجر، الخيل، النجوم... وهي عناصر لا تعمل منفردة، بل تعمل ضمن نسيج تعبري يضيف على التجربة الشعرية طابعها الملحمي

2.3 المبالغة أداة للتمجيد الوطني

لا تُفهم ظاهرة المبالغة في شعر مفدي بوصفها انحرافاً بلاغياً عابراً، بل هي -وفق مقارنة الأسلوبية التداولية- استراتيجية خطابية تهدف إلى تعزيز "سلطة القول" في سياق المقاومة والتحرر، إذ تتحوّل المبالغة في الشعر المقاوم إلى طاقة إيمانية.

وهكذا تفعل المبالغة فعلها اعتماداً على الخيال والتصوير في اللازمة التي يختم بها كل قصيدة من قصائد الإلياذة:

شغلنا الورى وملاًنا الدنا .. بشعر نرتله كالصلاة .. تسايحه من حنايا الجزائر

فشعر الشاعر بأنّ الإلياذة قد تحولت إلى كائن حي يتفاعل ويضطرب مع العالمين، ويصنع الشعور بالإعجاب الرهيب، إذ امتلأت الدنيا بذكر الثورة الخالدة، النابعة من حنايا الجزائر، وجملة: "شغلنا الورى" كناية عن صدى ثورة الجزائر في العالم أجمع.

ولا يكتفي مفدي بهذا المستوى من المبالغة، بل يسترسل فيصور نفسه والثوار بأنهم استعذبوا جميعا هذا الشعر، فأخذوا يرتلون كما يرتلون الآيات من القرآن، هكذا - إذا - نجد الشاعر قد نجح من خلال حسن التخيل والمبالغة في تقديم صورة جميلة للمكانة التي يحتلها شعره في مناصرة الثورة. ومجد الشاعر ثورة نوفمبر، وشهر نوفمبر هو عنوان الثورة التحريرية، فقال (مفدي، 1987، ص. 53):

تَأَذَّنَ رُبُّكَ لَيْلَةً فَادْرُؤْ أَلْفَى السَّتَارَ عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ

وَقَالَ لَهُ الشَّعْبُ أَمْرُكَ رَيْوَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: أَمْرُكَ أَمْرِي

وهكذا يتضح أنَّ المبالغة لدى مفدي «ذات وظيفة تبجيلية» تُضفي على صورة المجاهد هيئة كونية، تنتقل من البطولة الفردية إلى البطولة الأسطورية.

3.3. العنقوان الأسلوبي بين الموسيقى الداخلية والإيقاع النفسي

لا ينحصر العنقوان في الصور ولا في المبالغة وحدها، بل يمتد إلى البنية الموسيقية للنص. وتكشف المقاربة الإيقاعية الحديثة أنَّ الإيقاع ليس مجرد وزن، بل تدفق نفسي يتجلى في التكرار والترصيع والتنغيم.

وقد شكلت ظاهرة التكرار في شعر مفدي زكريا مفتاحا لكثير من أبياته الشعرية، إذ تتكرر في بداية كل بيت شعري بعض الكلمات أو الجمل التي تشكّل مقصد الخطاب الشعري الثوري، لجعل الملتقي في لبّ قضية التحرّر، وتحريك همّته وعزمته للدفاع عن وطنه والحفاظ على مبادئ ثورة نوفمبر. ومن ذلك قوله في قصيدة (اقرأ كتابك) (مفدي، 1987، ص. 51):

إِنَّ الْجَزَائِرَ فِي الْوُجُودِ رِسَالَةٌ الشَّعْبِ حَزَنَهَا، وَرُبُّكَ وَقَعَا!

إِنَّ الْجَزَائِرَ قِطْعَةٌ قَدْسِيَّةٌ فِي الْكُونِ، لَحَنَهَا الرِّصَاصُ وَوَقَعَا!

شَعْبٌ.. دَعَاهُ إِلَى الْخَلَاصِ بُنَائُهُ فَأَنْصَبَ مُذْ سَمِعَ الْبَدَأَ، وَتَطَوَّعَا

شَعْبُ الْجَزَائِرِ قَالَ فِي اسْتِفْتَائِهِ لَا، لَنْ أُبِيحَ مِنَ الْجَزَائِرِ إَصْبَعَا

إن التكرار وسيلة لغوية تؤدي دورا تعبيريا واضح المعالم، هُوَ التَّنْبِيهُ وَالتَّأَكِيدُ لِأَهَمِّيَّةِ الْعُنْصُرِ الْمَكْرَرِ، وأنه لب المسألة في الشعور السليبي أو الإيجابي للشاعر نحو ذلك العنصر.

فمثلا؛ نجد اسم ديبول يتكرر في شعر مفدي زكريا للتعبير عن مقتته والغضب عليه، إذ لا يعرف إلا القتل أو التلاعب بمشاعر الجزائريين محاولة منه، إما جعل أرضهم فرنسية أو اقتطاع جزء منها لصالح فرنسا، فيرد عليه الشاعر مفدي في كثير من شعره، ومنها قصيدة "هنيئا بني أمي"، قائلا (مفدي، 2012، ص. 270):

سَنَمْضَعُ يَا دِيغُولَ جَيْشَكَ لُفْمَةً.. فَجَيْشُ فَرَنْسَا مِنْ فَصِيلَةٍ خَرْفَانِ

وَتَحْفَرُ يَا دِيعُولُ قَبْرًا بَارِضَنَا .. لمن جهلت أحفادهم دار لقمان

ويوظفُ الشاعرُ التَّكرارَ ليصنع إيقاعاً موسيقياً مستوحى من القرآن الكريم، وهي تجربة فريدة، إذ يمزج الشاعر بين اقتباسه من القرآن وإبداعه الشعري بما يناسب عظمة الثورة التحريرية. ومثال هذا التكرار الإيقاعي المستوحى من القرآن الكريم، قول الشاعر مفدي في قصيدته الموسومة: "ألا إنَّ ربك أوحى لها"، فائلاً (مفدي، 2012، ص. 273):

هو الإثم زلزل زلزالها .. فزلزلت الأرض زلزالها

وحملها الناس أثقالهم .. فأخرجت الأرض أثقالها

وقال ابن آدم في حمقه .. يسائلها ساخراً: ما لها؟

فلا تسألوا الأرض عن رجة .. تحاكي الجحيم وأحوالها

إن أسلوب التكرار في الأبيات الشعرية السابقة مستمد من النص القرآني الذي يحكي عن يوم القيامة وأحوالها، وكذا أراد الشاعر أن يشبّه الثورة التحريرية بذلك اليوم يقع زلزاله وجحيمه على المستعمر الفرنسي

يؤدّي التكرار هنا وظيفتان رئيستان، أما الأولى فهي إيقاعية عبر إحداث نبضة نغمية ترفع منسوب العنفوان النفسي، وأما الوظيفة الثانية فهي دلالية من خلال تأكيد صعوبة مجازة الثورة الجزائرية، مما يحوّل المتن إلى بنية خطابية ذات قوة إقناعية.

4.3. الرمز الثوري المستمد من الطبيعة ووظيفته البلاغية في تشكيل الهوية الوطنية

يمثل الرمز إحدى أكثر البنيات تكراراً في شعر مفدي، حيث إنّ الرمز لدى شاعر الثورة يؤسّس لمعجم ثوري يُشرعن العنفوان. حيث يعبر الشاعر عن عظيم إحساسه بقوة الطبيعة وأسماء أماكنها في الجزائر العميقة، يبرز من خلالها رؤيته الخاصة تجاهها فهي مرتبطة بالثورة، وبخاصة الألفاظ التي ارتبطت بمناطق الكفاح، ومنها على سبيل المثال: "أوراس، جبل الوحش، الجزائر، بلكور، القصبة، بجاية، تلمسان"، وكثير من مناطق الجزائر قد ارتبطت بمعاني الثورة التحريرية. قال مفدي زكريا (مفدي، 1987، ص8):

وَتَسْمُو بِـ"أُورَاسٍ" أَجْجَادُهُ فَتَصْدَعُ فِي الْكَوْنِ هَذَا الْوَرَى

وفي "جَبَلِ الْوَحْشِ" تَاهَتْ بِلَادِي شُمُوحًا فَأَخَى الزَّوْمَانُ هَا

وَحَسْبُ "الْجَزَائِرِ"، أَبْطَالُ "بَلْكَورٍ" وَ"الْقَصْبَةِ" الْحَامِلِينَ الْوُثْقَةَ

وَعَانِقُ "بَجَايَةَ" فِي نَحْوَةِ يُعَانِقُ حَنَائِكَ سِرِّيَّاتُهَا

"تَلْمَسَانُ" أَنْتِ عَرُوسُ الدُّنَا وَحُلُمُ اللَّيَالِي وَسَلْوَى الْمُجَبِّينِ

الأسلوبية وتمثيل الخطاب الوطني في اللهب المقدس

1.4 وظائف الأقوال الإنشائية في بناء القوة الإنجازية للخطاب

تُظهر القراءة التداولية أنّ مفدي يعتمد بكثرة على الأقوال الإنشائية (نداء، تعجب، أمر، قسم، تمنى...)، وهي ليست جملاً لغوية فقط بل أفعال إنجازية تستهدف التغيير النفسي والفكري للمتلقي.

ومثال ذلك في النداء، حيث يقول مفدي: **وَيَا لَوْحَةً فِي سِجِلِّ الْخُلُودِ تُمَوِّجُ بِهَا الصُّوْرُ الْخَالِمَاتُ** (مفدي، 1987، ص. 19)، إذ تتمثل وظيفة النداء في تكثيف الانتباه، ونقل الخطاب من البنية الوصفية إلى البنية الإنشائية المؤثرة، وإسناد هوية «المركز» للجزائر.

ويصوغ الشاعر وصفه في أساليب استفهامية، لعرض مبالغاته، ومن أمثلة ذلك استفهامه عن مليانة، أكانت عش العقاب أم مدينة أزلية رومانية كما أجمع معظم المؤرخين. فقد كانت مليانة هدفا للطامعين من الملوك، وميدانا للصراع بين الموحدين والزيانيين والصنهاجيين، وبني هلال والمرابطين والحفصيين، إذ كانت تسمى مليانة: عش العقاب، وركار هو جبل يطل على مليانة. ويوظف الشاعر الأساليب الاستفهامية في شعره، ليستلهم المتلقي مراده ويقتنع به، وبه ينكر على المستعمر ويسخر منه، ويؤكد على بطولات الجزائريين وسيرهم في طريق الحق والكفاح لنيل استقلالهم، فهاهو الشاعر يسخر من سداجة المستعمر الفرنسي أمام قوة الثورة التي شملت كل شيء، فيقول: **أَيْنَسَى الْبَغَالُ أَيْنَسَى الْحَمِيرُ ..** وهل ببطولاتها يستهان (مفدي، 1987، ص. 65)، كما أنّ أفعال الأمر هي أفعال إنجازية يقصد بها خلق حالة تعبئة وجدانية في خطابه الثوري. للخطاب الثوري. أما القسم في شعره فيوحي باليقين على نحو البيت الأول من النشيد الوطني: (قَسَمًا)؛ حيث يضفي القسم على الخطاب طابع الجزم والإلزام القيمي، وهو ما تمنحه التداولية صفة القوة الإنجازية العالية.

2.4 بناء الهوية الجماعية عبر آليات التلفظ: ضمير الجماعة أنموذجاً

يرتبط تشكّل الهوية في خطاب مفدي بمركزية ضمير «نحن»، إذ تتحوّل الـ«نحن» في الديوان الشعري إلى «ذات جمعية» تتكلم باسم الوطن. فالذات الناطقة تتكون لغويا عبر الضمائر، يقول مفدي زكريا (مفدي، 2012، ص. 270):

سَنَمْضَعُ يَا دِيْعُولُ جَيْشَكَ لُقْمَةً .. فَجَيْشُ فَرَنْسَا مِنْ فَصِيلَةٍ خَرْفَانِ

وَنَحْفَرُ يَا دِيْعُولُ قَبْرًا بِأَرْضِنَا .. لِمَنْ جَهِلَتْ أَحْفَادُهُمْ دَارَ لَقْمَانِ

يقوم الضمير هنا بوظيفتين:

- تدوير الفرد في الجماعة عبر امتلاك الفعل (سنمضغ - نحفر).
- ترسيخ الهوية الملحمية وإشراك المتلقي في صنع المعجزة.

3.4 البرهنة الحجاجية في خطاب مفدي: بين الإقناع والتأثير

يتّجه مفدي نحو الخطاب البرهاني الذي يسعى إلى الإقناع باستخدام وسائل لغوية بلاغية وحجاجية. وتقف التداولية على أن اللغة ذات طبيعة حجاجية بطبيعتها.

أ. الحجة القائمة على المفارقة: حيث ينطلق الشاعر من قاعدة قيمة هي أنّ الشعب الأبي لا يهين، ليتوصّل إلى نتيجة ضمنية تتمثل في قدرة الأمة على مواجهة الزمن.

ب. حجة الاستشهاد التاريخي: حيث يستدعي مفدي رموزًا تاريخية جزائرية، وأماكن تاريخية، ليدعم أطروحته بخصوص استمرارية البطولة، وهذا ما نسمّيه التعزيز بالمثل التاريخي.

ج. حجة الاستعلاء القيمي: حيث يقوم الاستعلاء على: بيان التفوق القيمي، وترسيم الجزائر مقامًا عاليًا، لا يمكن الوصول إليه، وهو مستوى حجاجي يقوم على المفاضلة.

4.4 السياق الثقافي ودوره في تشكيل الخطاب التداولي

تؤكد التداولية الحديثة - وخاصة المدرسة الأنغلو سكسونية (Leech, 1983) - أنّ معنى الخطاب لا يكتمل دون استحضار السياق الثقافي، وشعر مفدي وثيق الارتباط بالسياق الثوري الجزائري، إذ تتشكّل اللغة داخل بيئة استعمارية، وتوظّف المفردات بوصفها أدوات مقاومة، وتُعاد صياغة الرموز لتكون معادلة للهوية الجماعية.

6. التلقّي والأثر الجمالي للخطاب الملحمي في اللهب المقدّس

1.6 جمالية التلقّي وبناء الاستجابة الانفعالية

تقوم جمالية التلقّي على العلاقة التفاعلية بين النصّ والقارئ. وفي هذا الإطار، يعمل الخطاب الملحمي في شعر مفدي على تشكيل استجابة انفعالية مبنية على الانبهار، الحماسة، والتماهي مع الجماعة الثائرة، حيث تعمل الصورة الشعرية في قصائد مفدي على خلق تجربة نفسية مشتركة بين القارئ والذات الشاعرة؛ فالخلد يغني، والوجود يهتزّ، مما يرفع مستوى المشاركة الوجدانية ويحدث ما تسميه اللسانيات التداولية: الاستجابة غير المباشرة.

2.6 الإيديولوجي وتشكيل الوعي الوطني

يتجاوز تأثير اللغة الملحمية المستوى الجمالي إلى مستوى تشكيل الوعي؛ فالخطاب الشعري هنا ليس محايدًا، بل هو خطاب ذو حمولة وطنية تحريرية، يقود قارئه نحو اعتناق قيمة الثورة، بوصفها «خطابًا أسطوريًا» يُعاد عبره تشكيل القيم الجماعية، وتحليلات ذلك في لوحة مفدي واضحة، فالشاعر يصف الثورة بأنها قد هزت عروش الظالمين والطغاة، حيث ينتقل القارئ من دور المتلقّي إلى شاهد تاريخي ضمنيًا، ويُستدرج إلى مسابرة الخطاب عبر: قيمة العدل، والسمو الأخلاقي للثورة، وتلاشي الظلم.

3.6 سلطة اللغة الملحمية في بناء الانفعال الجمعي

تُظهر اللغة الملحمية في ديوان مفدي زكريا قدرةً فريدة على إثارة الانفعال الجمعي، فهي لا تقتصر على التعبير عن تجربة فردية بل تتعدها لتشمل شعور الجماعة ككل. يعتمد الشاعر على الرموز الملحمية مثل النار، الفجر، الفداء، الخيل، والنجوم، التي لا تعمل بمعزل عن بعضها، بل تتفاعل لتكون نسيجًا تعبيريًا متكاملًا يعزز من قوة الانفعال الشعوري لدى المتلقّي.

تعتبر اللغة الملحمية عن التجربة الفردية للمقاوم أو الشاعر؛ ومن جهة أخرى، تعكس إرادة الجماعة ومقاومتها، فتتحول الكلمات والرموز إلى أدوات لإشراك المتلقي في تجربة جماعية. بذلك، تصبح اللغة وسيلة لإعادة تشكيل الوعي الجمعي، بحيث يشعر المتلقي بأنه جزء من الكيان الوطني والثوري الذي يصوره الشاعر. ويمكن القول إن البناء الرمزي والدلالي للصور الملحمية في الديوان يضمن استجابة عاطفية مشتركة، حيث يخلق الانفعال الجمعي شعوراً بالانتماء، ويعزز الوعي بالقيم الوطنية والتاريخية. وهذا ما يجعل الشعر عند مفدي زكريا ليس مجرد خطاب جمالي، بل أداة ثقافية ونفسية تُحرّك الجماعة وتوحدّها حول تجربة المقاومة والوطنية (Stockwell, 2002, p. 110).

4.6. التلقي الجمالي عبر الموسيقى الداخلية والإيقاع

الجانِب الصوتي أو الموسيقي للنص، بل يمتد ليصبح أخلاقاً للمعنى. بمعنى آخر، الإيقاع عند الشاعر ليس مجرد نغمة تُسعد السامع، بل هو أداة لإنتاج المعنى ورفع وعي المتلقي بما يقدمه النص من قيم وطنية وثورية.

يعتمد مفدي على التكرار الصوتي واللفظي كأسلوب أساسي في بناء الإيقاع، ما يُسهم في خلق إيقاع نفسي تصاعدي لدى المتلقي، ويعزز الانفعال الجماعي المرتبط بتجربة المقاومة أو المسير الوطني. هذه الآلية تسمح للنص الشعري بأن يحرك المشاعر الجماعية ويجعلها جزءاً من التجربة القرائية، بحيث يشعر كل فرد من المتلقين أنه جزء من الكيان الجمعي الذي يصوّره النص الملحمي. ويربط الإيقاع بين البنية الأسلوبية والتجربة الأخلاقية للشاعر، فيظهر النص الملحمي كساحة متكاملة تجمع بين الرموز، الانفعال، والمعنى. وبهذه الطريقة، لا يعمل الإيقاع كمكوّن صوتي فقط، بل كأداة فعالة لإعادة تشكيل الوعي الجماعي وتعزيز القيم الأساسية مثل الصمود والمقاومة.

5.6. فعل التلقي وميكانيزمات التأثير الخطابي

يرتكز الخطاب الملحمي في ديوان مفدي زكريا على ثلاثة ميكانيزمات تأثير رئيسة:

1.5.6 ميكانيزم التماهي

يرتكز الخطاب الملحمي في ديوان مفدي زكريا على ميكانيزم التماهي، حيث يُتيح للمتلقي أن يتماهى مع الذات الجمعية التي تبنّيها اللغة، عبر ضمائر الجماعة مثل «نحن»، «شعبنا»، و«ثورتنا». هذه الاستراتيجية لا تُعطي فقط إحساساً بالانتماء، بل تُحوّل القارئ إلى شريك فعلي في التجربة الوطنية والثورية، فيصبح جزءاً من السردية الملحمية. من خلال التماهي، يتحقق تواصل شعوري مباشر بين النص والمتلقي، ما يجعل الشعر أداة لتشكيل وعي جماعي ورفع الشعور بالمسؤولية والمشاركة في النضال الوطني.

2.5.6 ميكانيزم الاندماج الانفعالي

يقوم الخطاب الملحمي على ميكانيزم الاندماج الانفعالي، الذي يُحدث عبر استخدام الرموز والمفردات الملحمية المزدوجة الدلالة، مثل المجد، الشهادة، الفجر، اللهب. إذ لا تعمل هذه المفردات بمعزل عن بعضها بل تتفاعل لتشكّل إيقاعاً نفسياً تصاعدياً يرفع حدة الانفعال الجماعي، ويجعل التجربة القرائية مشحونة بالعاطفة والحركة. فالرموز المتكررة تخلق شعوراً بالاستمرارية والمقاومة، وتحافظ على توحيد الانفعال الجماعي، بحيث يشعر كل فرد أنه جزء من الكيان الجمعي في النص الملحمي (Stockwell, 2002, p. 112).

3.5.6 ميكانيزم الإيحاء الرمزي

يعتمد الخطاب على ميكانيزم الإيحاء الرمزي، حيث تتحوّل الكلمات والرموز إلى أدوات لإحداث استجابة غير مباشرة تتجاوز المعنى الظاهر للنص. الرموز مثل الفجر، النار، والخلود تمنح النص بعداً رمزياً أعمق، يجعل المتلقي يستشعر القيم الوطنية على مستوى فكري وروحي. تعمل هذه الرموز كجسر بين البعد الوطني الخاص بالجزائر وبين بعد عالمي من القداسة والمعنى، فتصبح اللغة الملحمية أداة تأثير ثقافي ونفسي، قادرة على إشراك الجماعة في تجربة موحدة، وتوحيد الوعي الجمعي حول المقاومة والقيم الوطنية.

7. خاتمة

لقد سلط هذا البحث الضوء على الملحمية والتداولية الأسلوبية في شعر مفدي زكريا من خلال دراسة ديوان اللهب المقدّس، مستعرضاً طبيعة المبالغة والعنفوان كآليات جمالية ووظيفية في الخطاب الثوري. وأظهرت الدراسة أن شعر مفدي يتجاوز حدود التعبير الفني ليصبح أداة فعالة في بناء الوعي الجمعي، وتقوية الهوية الوطنية، وتفعيل الانتماء القيمي للأمة.

توصّل البحث إلى أن المبالغة الشعرية والعنفوان تمثل أدوات فنية وتقنية تعزز من السمو القيمي والخطاب الملحمي، وتضاعف تأثير النص على المتلقي. كما أظهرت التداولية والأسلوبية أن ضمائر المخاطب والأقوال الإنشائية والاستعارات الحجاجية تصنع خطاباً ديناميكياً يُفعل المشاركة الوجدانية والسياسية للقارئ. وأكدت الدلالات الملحمية في اللغة قدرة النص على خلق رموز وطنية، واستخدام الزمن والتاريخ كأدوات لإعادة صياغة الوعي الجمعي، بينما بين تحليل التلقي والجمالية أن الخطاب الملحمي يولّد تأثيراً وجدانياً وجمالياً، ويسهم في تكوين الأمة المتصورة بما يعكس أبعاد النصوص الملحمية الكلاسيكية. ونوجز النتائج في النقاط الآتية:

- المبالغة الشعرية والعنفوان في النصوص تعمل على تعظيم السمو القيمي والخطاب الملحمي، وزيادة تأثير النص على المتلقي.
- الاستخدام المتقن للضمائر المخاطبة والأقوال الإنشائية والاستعارات الحجاجية يُسهم في تفعيل المشاركة الانفعالية والسياسية للقارئ.
- اللغة الملحمية تنشئ رموزاً وطنية قوية، وتوظف الزمن والتاريخ لإعادة صياغة الوعي الجمعي وبناء الهوية الوطنية.
- الخطاب الملحمي يولّد تأثيراً وجدانياً وجمالياً، ويعزز تجربة التلقي ويُشكل «الأمة المتصورة» لدى المتلقي.
- استناداً إلى هذه النتائج، يقترح البحث التوسع في دراسة تداولية الشعر الثوري الجزائري عبر مقارنة ديوان اللهب المقدّس بدواوين أخرى لمفدي أو شعراء جزائريين معاصرين لاستقصاء الاختلافات الأسلوبية والدلالية، وتحليل دلالات الرموز والصور الملحمية بوصفها أدوات تشكيل الهوية الوطنية. كما يُنصح بدراسة تأثير التلقي عملياً من خلال استبيانات أو مقابلات مع قراء الشباب لفهم كيفية ترجمة اللغة الملحمية إلى إحساس بالانتماء الوطني، وإدماج نتائج هذا البحث في المناهج التعليمية لتقريب الطلاب من الشعر الوطني وتقدير قيمته الجمالية والتاريخية.

في الجمل، يؤكد هذا البحث أن شعر مفدي زكريا في اللهب المقدّس ليس مجرد خطاب فني، بل مشروع جمالي وتربوي ووطني متكامل، حيث تتقاطع المبالغة، العنفوان، الملحمية، والتداولية لتقديم نص قادر على صوغ الوعي والوجدان الجمعي للأمة الجزائرية.

المراجع

1. تاحي، ب. (2019). الخطاب الشعري الجزائري: مدونة من إيذاة الجزائر، مفدي زكريا أنموذجاً. الشلف: مجلة أدبيات 1(2)
2. راغب ن. (1996). فنون الأدب العالمي. القاهرة: دار نوبار للطباعة.

3. مزهود، س. (2021). أثر المبالغة في الخيال الشعري عند مفدي زكريا؛ الثورة التحريرية أنموذجا. مجلة الفضاء المغاربي، 19(1)، ص ص 71-91.
4. مفدي، ز. (1987). إلياذة الجزائر. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
5. مفدي، ز. (2012). اللهب المقدّس. الجزائر: دار الأمة.
6. Crystal, D. (2003). The Cambridge encyclopedia of the English language (2nd ed). Cambridge University Press.
7. Frye, N. (1957). Anatomy of Criticism: Four Essays. Princeton, NJ: Princeton University Press.
8. Leech, G., & Short, M. (2007). Style in Fiction: A Linguistic Introduction to English Fictional Prose (pp. 120–125). Pearson Education.
9. Stockwell, P. (2002). Cognitive Poetics: An Introduction. Routledge.